مجلة جامعة *الملك سعود*، م١٠، *الآداب* (١)، ص ص ٥٣-٩٢ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

حسن محمد ربابعة
أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فيلادلفيا،
صويلح، الأردن
(قدم للنشر في ٤/٦/١٤١٦هـ؛ وقبل للنشر في ٢٩/٢/١٤١٧هـ)

ملخص البحث. اتَّسم شعر الشعراء الصعاليك في الجاهلية بسمة حربية هي «الغارة» على القبائل العربية في جزيرة العرب لأسباب اجتماعية كالفقر، والأخذ بالثأر، وسياسية لعدم توافر دولة تحتكم إليها القبائل في نزاعاتها، ولأسباب أخرى أدرجت في البحث.

وأعتقد أن الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية لم تدرس دراسة عسكرية أدبية من قبل، وقد قسم البحث إلى :

١ ـ مصطلح الغارة ودوافعها.
٢ ـ التخطيط للغارة.
٣ ـ تنفيذ الغارة.

مقدمة

منذ فقد كتاب «اللصوص» لأبي سعيد السكري الذي عني بدراسة مستقلة عن الصعاليك تفرقت أشعارهم وأخبارهم شذر مذر في بطون مصادر الأدب ومعاجم اللغة، ومصادر التراجم، ومعاجم البلدان، ومصادر الشعر وغيرها، بحيث نال كل مصدر حاجته من شواهد رآها لازبة له. ولعل من أبرز مصادر الأدب التي عنيت بأشعارهم هي: *الحيوان* للجاحظ، *والأمالي* لأبي علي القالي، *والكامل* للمبرد، *والعقد* لابن عبدربه، ومجمع *الأمثال* للميداني. كما أن من أبرز معاجم اللغة التي احتجت بلغتهم شرحًا للفظ وتبيانا للمعنى في شتى التوظيفات هي: *الصحاح* للجوهري،

ولسان *العرب* لابن منظور، و *القاموس المحيط* للفيروز آبادي، و *تاج العروس* للزبيدي. والتمعت بعض أشعارهم وأخبارهم في *خزانة الأدب* للبغدادي وهو يحتج بشواهد من شعرهم فيها؛ وفي شرحه لشواهد مغني *اللبيب* لابن هشام. ولعل أبرز أخبارهم وأشعارهم أن تلتمعه في كل من: *كتاب الأغاني* لأبي فرج الأصبهاني، *والشعر والشعراء* لابن قتيبة، ونزهة *الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار* لابن درهم. هذا، وضمت معاجم البلدان شيئاً من أشعارهم في تحديد مواقع بعض البلدان التي ذكروها في أشعارهم نحو: *صفة جزيرة العرب* و *الإكليل* للحسن الهمداني، و معجم *ما استعجم* للبكري، و معجم *البلدان* لياقوت الحموي وغيرهم. وتوزعت أشعارهم في مصادر الشعر نحو: *المفضليات* و *الأصمعيات* والحماسات المختلفة كحماسة أبي تمام الكبرى، وكتاب *الوحشيات الصغرى*، و *حماسة البحتري*، و *حماسة ابن الشجري*، و *الخالديين* وغيرهم. وجمعت *الطرائف* الأدبية شبه ديوان لتأبط شراً، كما أن من أشعارهم ما ضمه ديوان كديوان عروة *بن الورد*، ومنهم من ذكر فروسيتهم، كصاحب *لباب الآداب*، كما أن أخبارهم وأشعارهم في مصادر شتى يضيق البحث عن ذكرها، فأدرجت بعضها كمراجع في ثبت البحث.

ومخلص القول: إن تفرق أشعارهم وأخبارهم كما رأيت في الثبت - وهو غيض من فيض - ربما رغَّب كثيراً من البحثة المحدثين عن درس شعرهم، بعد أن سبروا أحواله في شتات المصادر المتعددة، وعلى الرغم من متاعب البحث في شعرهم، فقد جازف يوسف خليف وكان أول من خاض - فيما أعلمه - لجة شعرهم وحياتهم في كتابه الموسوم *بالشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي*، ودرس ظاهرة الصعلكة وفسَّرها اجتماعيّا وجغرافيًا واقتصاديّا، ودرس بعده عبدالحليم حفني الصعلكة لغة واصطلاحًا ونشأتها متأثراً بدراسات الأول، وامتد بحثه فاشتمل الصعاليك في الإسلام، كما تغلغل في نفسية الصعلوك من خلال شعره وسيرة حياته في جاهليته وإسلامه. وأبرز خصائص الشعر الاجتماعي في كل من العصرين في كتابه الموسم بشعر *الصعاليك - منهجه وخصائصه*.

والحق، فقد ألمح الباحثان إلى شعر الحرب عندهم كشعر المراقب وحديث الفرار، ولكنه على تقديري لدراستيهما إلماح غير مستوف، مما دفعني إلى أن أتناول

ظاهرة حربية وسمتها بـ (الغارة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية)؛ ذلك لأن السمة الغالبة على حروبهم كانت تتخذ من الغارة فن قتال؛ فيشنها ثلة من الشعراء الصعاليك، وقد يقودون غيرهم من صعاليك غير شعراء، فيروعون المجتمع الجاهلي أيما ترويع، بل يفزعونه أيما إفزاع، يدفعهم إليه فقر معوز، أو للأخذ بثأر كان يغلي بأكبادهم، أو للانتقام من قوم أذلوهم بالسلب والغلب، فهبوا سراحين؛ يشاغبون خصومهم ليلاً ونهاراً، ويتلبسون الليل في غالب غاراتهم؛ رداء خفيًا، فينجزون غزواتهم فيه، ويعودون إلى قواعدهم سراعا لا تدركهم الخيل، والليل أليل. كانوا دللاء أنفسهم في متاهات صحارى يضل بها المنجمون، ويستخبرون أعداءهم وأهدافهم بالحيلة والخديعة، ووسائل شتى، ورموزهم لغة يتفاهمون بها وينسقون معانيها فيما بينهم، يتخفَّفون من اللباس بسبب فقرهم وطلبًا للنجاة في هروبهم، ويطمرون فضلات ما يأكلون حفاظا على الأمن، وسرية الترصد؛ إنهم يرصدون ويرصدون، فتية يوفضون إلى قواعدهم سراعا على جراحاتهم، ويعيدون الأسلاب إذا كانت سببًا لمنجاتهم، كأن شعارهم (اضرب واهرب، واسلب وانهب) وإياك والمغامرة الفاشلة، ولذا فإنهم يعترفون بهزائمهم أمام خصومهم، وحيناً بها يفتخرون؛ يأسرون ليستفدوا، ويستفدون إذا أسروا، ويسبون النساء ليعرسوا بهن، صُبُرٌ على الجوع والعطش، بُسَّلٌ على مخاوف الصحارى في حنادس الليل، حين تتناوح في متاهاتها الرياح العاتيات، وتتناعق الغربان في أفنائها، وتتمثل لهم الغيلان ليلاً بأشباحها، وتتعاوى الذؤبان في شعابها، وتلسعهم صحارى بسياطها اللاذعات صيفًا ونهارًا، وشتاء وليلاً، تلسعهم دونما شفقة، وهم يتضورون في أسمالهم من ألبسة بالية؛ لا تقيهم حرها ولا قرها، وهم مع ذلك حرص على تنفيذ غارتهم لا يكاد يغمض لهم طرف؛ حذرا من عدو يتربص بهم الدوائر، بواسل لا ترتعد لهم فريصة في حالتي كرهم وفرهم، وأبرزهم الشنفرى، وتأبط شرًا، والسليك بن السلكة، وعروة بن الورد، وعمرو بن براق، وصخر الغي الهذلي، وحاجز بن عوف الأزدي، ومالك الهمداني.

هذا؛ وقد درست الغارة عندهم من ثلاثة محاور رئيسة هي:

١ ـ مصطلح الغارة ودوافعها

٢ ـ التخطيط للغارة

٣ ـ تنفيذ الغارة

أولاً : مصطلح الغارة ودوافعها

يكاد مصطلح الغارة لغة ينحصر في معاجمنا القديمة والحديثة على أنه جماعة من الخيل إذا أغارت على العدو والهجوم عليه والإيقاع به .(١)

ولعل توقف المعاجم المذكورة عند هذا المعنى لغة دون أن تتوسع إلى الغارة الراجلة أن يؤكد ضرورة متابعة مراحل تطور المصطلح عبر تاريخ الأمة العربية . ومصطلح الغارة raid في القاموس الإنجليزي فيه تمدد لمعناه الاصطلاحي ، إذ إنه عملية عسكرية سريعة على ظهور الخيل يمتطيها فرسان بغزوات على الطرق ، ويمتد معناها ليشمل دوافعهم طلبا للثروة ، وإلى معنى كتائب غزوكمغاوير .(٢)

ولعل مصطلح الغارة أن يكون بعض ما عرفه المعجم الإنجليزي صحيحا ، مع أني أرى نقصا فيه فهو عنده «هجوم قوة مفاجأة أو هجوم على شيء للقبض عليه أو لقمعه أو لتدميره .»(٣)

ويمكن أن نخلص إلى تعريف الغارة بأنها : نوع من الدوريات ذات قوة مسلحة فرسانا أو رجلة ، تعتمد على السرعة والمفاجأة في شنّ عملياتها على العدو ، وذلك بعد تخطيط دقيق واستخبار كاف عن قوات العدو وسلاحه وتوزيع قواته ، وطبيعة أرضه ومكامنه ؛ كي تتمكن من تحقيق أهدافها التي يمكن أن تكون التدمير والقتل أو يسند إليها واجب السلب والنهب ، أو خطف أفراد من العدو ، أو سبيهم ، أو واجبات أخرى ، ومن مبادئها

---

(١) انظر مادة (غور) عند : إسماعيل بن حماد الجوهري ، *تاج اللغة وصحاح العربية* ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، ط٢ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م) ، ٢ : ٧٧٣-٧٧٥ ؛ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، *لسان العرب المحيط* ، إعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي (بيروت : دار لسان العربي ، ١٩٨٤م) ، ٢ : ١٠٢٧ بمعنى خيل مغيرة ؛ مجد الدين الفيروز آبادي ، *القاموس المحيط* ، تصحيح على نسخة محمد الشنقيطي (بيروت : عالم الكتب ، د.ت.) ، ٢ ، ١٠٥٠ ، ولعله ينقل معنى أغار وإغارة من *لسان العرب* ؛ أحمد بن محمد الفيومي ، *المصباح المنير في غريب الشروح الكبير* ، صححه على النسخة المطبوعة بالمطبعة الأميرية ، مصطفى السقا ، ط١ (القاهرة : مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د.ت.) ، ٢ : ١١٠ ؛ مجمع اللغة العربية ، *المعجم الوسيط* ، إخراج ابراهيم مصطفى وزملائه (استامبول : دار الدعوة ، ١٩٨٩م) ، ٦٦٥-٦٦٦ .

(٢) *Short Oxford Dictionary*, "Art Raid," 1740.

(٣) Ibid.

الانسحاب، بعد إنجاز المهمة، إلى قواعد متفق عليها، دونما اهتمام باحتلال أرض للعدو، أو الاحتفاظ بها، وخاصة عند التيقن بأن خطر العدو، قد يداهمها فيها. ولعل أبرز مبادىء قتالها اضرب واهرب، على نحو من مفهوم حرب العصابات؛ معتمدة على لياقة بدنية عالية، في تنفيذ واجباتها. فما مفهوم الغارات عند الشعراء الصعاليك، في ضوء درس شعرهم وأخبارهم؟ وما دوافعهم؟

لعل من أبرز دوافع غارات الصعاليك دافعين: جسديًا ونفسيًا، وهما دافعان رئيسيان يؤيدنا بهما معاجم اللغة وسير حيواتهم وأشعارهم، ويمكن أن نضيف دوافع أخرى استنتجها بعد دراسات جادة باحثان هما: يوسف خليف، وعبدالحليم حفني. عزاها الأول إلى دوافع اجتماعية وجغرافية واقتصادية، وعزاها الثاني إلى دوافع سياسية؛ ممثلة بعدم وجود دولة جامعة، وظهور زعامات غير متزنة، وإلى عوامل اجتماعية ممثلة بعدم التوازن بين الفقر والغنى، وإلى عوامل جغرافية تمثلها طبيعة الأرض والحياة، متأثرًا برأي يوسف خليف، وإلى عوامل أخرى كالفردية والوراثة، والاستعداد والشذوذ على نحو اجتماعي نفسي. (٤)

وأما أبرز دوافع الصعلكة فجسدي ونفسي، وهما دافعان قويان أثرا في صعلكتهم، وتبنيهم حرفة التصعلك والفتك والشطارة، وهما اللذان أتكىء عليهما من خلال تحديد معاجم اللغة لمعنى الصعلكة، ذلك لأن صاحب *الصحاح* يحدد معنى الصعلوك بالفقير الذي لا مال له، ويرفض أن يعيش عالة على غيره بأن يجعل أحدًا من الناس عمادًا له في حين رضي بعضهم لأنفسهم عيش الذل. (٥)

ومن أسمائهم عند الجوهري «الذؤبان» لأنهم يتلصصون، وفي *لسان العرب* فقراء ومثله في *القاموس المحيط* لامال لهم، ومن أسمائهم الفتكة لما امتازوا به من شجاعة وغيلة التي تعني انتهاز الغفلة التي من لوازمهم، مستغلين العزيمة، ومن

---

(٤) يوسف خليف، *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي*، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٦٣-٨٨؛ عبدالحليم حفني، شعر *الصعاليك منهجه وخصائصه*، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ٣٩-٨٥.

(٥) محمد مرتضى الزبيدي، *تاج العروس من جواهر القاموس*، ط١ (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ)، ٧: ١٥٣.

أسمائهم الخلعاء أيضًا لأن قبائلهم تخلعهم لكثرة جرائرهم.[٦]

ونخلص إلى القول: بأن سلوك الصعلوك سلوك عدواني ودائم مهما اختلفت صوره وأساليبه، وهم بالمعنى العرفي ذؤبان ولصوص وفقراء احترفوا فنونًا من القتال في التلصص والسلب والفتك وهم أباة لا يقبلون الضيم، أو أن يتطول أحد عليهم بفضله، وساعدهم على تصعلكهم عوامل أبرزها اثنان هما: الدافع الجسدي والدافع النفسي.

الدافع الجسدي

الدافع الجسدي إلى التصعلك، فيعزى لحاجتهم إلى الطعام، وتأبِّي نفوسهم الذل لأحد، أو الاستجداء من أحد، وقد تمتعوا بلياقة بدنية عالية، فهم فقراء يرون الفقير من شرار الناس، ولذا لا بد من التماس جوانب الغنى أينما كانت، فهاهم فقراء وذوو عيال؛ فأصغ إلى عروة بن الورد يخاطب زوجته:[٧]

ذريني للغنى أسعى فأني رأيت الناس شرهم الفقير

وقوله:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

وقوله:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

فالجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان فيما يقال،[٨] والسليك بن

(٦) انظر مادتي: «صعلك» و«خلع» عند: ابن منظور؛ *لسان العرب*، ٢: ٣٤٣، مادة «صعلك»، بمعنى الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري، ولا اعتماد، ١: ٨٨١، مادة «خلع»، منه الخليع الشاطر الخبيث الذي خلعته عشيرته وتبرأت منه لجرائره. الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، : ٣: ١٨-١٩، مادة «خلع»، منها الخليع والمخلوع وهو الذي لا يؤخذ بجريرته بعد خلعه، و٣: ٣١٠، «صعلك»، ومنها الصعلوك بمعنى الفقير؛ أسامة بن منقذ (الأمير)، *لباب الألباب*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م)، ١٧١؛ كان تأبط شرًا صعلوكا فاتكًا.

(٧) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا عروة والسموأل* (بيروت: دار صادر، ١٩٦٤م)، ٤٥، ٤٤، ٢٢ بالترتيب؛ خليف، *الشعراء الصعاليك*، ٢٩.

(٨) Ernest R. Groves, *Personality and Social Adjustment* (New York: The Modern Library, 1931), 27.

السلكة يعاني من آثا ر الجوع أحيانا فيغمى عليه ويشرف على الهلاك: [٩]

وما نلتها حتـــى تصعلكت حقبة   وكدت لأسباب المنية أعـــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني   إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

ومنهم من يبرز صراعه مع الجوع، واستعداده لالتهام التراب على أن يرى لأحد فضلاً عليه كالشنفرى: [١٠]

أديم مطـال الجـــوع حتى أميتـــه   وأضرب عنه الذكر صفحًا فأذهل

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له   عليّ من الطول امرؤ متطـــول

إنهم كما ترى أباة يستسهلون الموت للوصول إلى تحقيق الغنى، فعروة بن الورد يرى الموت خيراً من حياة فقيرة يعيشها المرء، ولا يعطف عليه أحد من أقربائه؛ إذا احتاج إليه وضعفت حالته: [١١]

إذا المرء لم يبعث سوامًا ولم يرح   عليه، ولم تعطف عليه أقاربـــه

فللموت خير للفتى من حيـــاته   فقيراً، ومن مولى تدبّ عقاربه

وهم أصحاب عزيمة عالية، ونفس أبية، يمتدحون الصعلوك الجادّ في عمله ممن يطل على أعدائه كل حين، ليغتنم فيهم الفرصة؛ في حين يسبّون صعلوكًا متسكّعا حول موائد غيره، يرتجي عنده فضلات من طعام أو قطعة لحم، ويصبح يحتّ عن جنبيه الحصى في كسل وعجز، ولا يفكر إلا في قوت بطنه: [١٢]

لحي الله صعلوكا إذا جنّ ليله   مصافي المشاش آلفا كل مجزر

يعدّ الغنى من دهره كل ليلـــة   أصاب قراها من صديق معشر

ينام عشاء ثم يصبح ناعـــسًا   يحتّ الحصى عن جنبه المتعفر

ولله صعلوك صفيحة وجهه   كضوء شهاب القابس المـتنوّر

مطلّ على أعدائه يزجـــرونه   بساحتهم زجر المنيح المشـــمر

(٩) أبو الفرج الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، تحقيق عبدالكريم إبراهيم الغرباوي ومحمود محمد فهيم، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د. ت.)، ١٨: ١٣٥.

(١٠) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، *كتاب ذيل الأمالي والنوادر* (بيروت: منشورات دار الآفاق الحديثة، د. ت.)، ١: ٢٠٤.

(١١) عروة بن الورد، *ديوانه*، ١٩.

(١٢) عروة بن الورد، *ديوانه*، ٣٥-٣٨.

والصعلوك جسديّا هزيل الجسم، لكنه كريم النفس، شديد السطوة كالأسد الذي لا يبالي بالعواقب: (١٣)

يابس الجنبين من غير بــؤس ونَدي الكفين شـــهم مدلّ
غيث مزن غامر حيث يجدي وإذا يسطو فليث أبــــل

وهو نحيف الجسم، ذو ذراع طويلة، تظهر عروق ذراعه، قليل اللحم، مشمر الثوب، قوي البنية، شأن الشنفرى الذي يصفه تأبط شراً: (١٤)

عاري الضنابيب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهي الماء غساق

والصعاليك سراع كالشنفرى الذي يعادل وقع قدمه على الأرض مشي ذكر النعامة إلى أولاده: (١٥)

أرى قدميَّ وقعهما خفيف كتحليل الظليم حـدا رئاله

ولا غرو أن يفوز الشنفري في سباقه مع القطا الكدر إلى نبع الماء، وهي أسرع الطيور ويتباهى: (١٦)

وتشرب أسآري القطا الكدر بعدما سـرت قربا أحشاؤها تتصلصـل
هممت وهمّت وابتدرنا وأسـلدت وشـــمّر مني فارط متمهّــل
فوليت عنها وهي تكبو لعـــقره يباشره منها ذقون وحوصــــل

وتميز الشنفرى بسرعته «فقد ذرع خطوه ليلة مقتله فوجد أول نزوة نزاها إحدى

(١٣) «ديوان حماسة أبي تمام، شرح التبريزي، ط١ (بيروت: دار القلم، د. ت.)، ١: ٣٤٧، يرثي تأبط شراً.

(١٤) أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي، *شرح المفضليات*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ت.)، ٢٩-٥٢.

(١٥) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٣.

(١٦) انظر الشعر عند كل ممن يلي: عبدالرحمن بن درهم، *نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار* (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، د.ت.)، ٧٣١؛ القالي، *كتاب ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٣-٢٠٦؛ الشنفرى، *لامية العرب، لشاعر الأزد* (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م)، ٧٤ وما بعدها؛ بطرس البستاني، *الشعراء الفرسان*، ط١ (بيروت: مؤسسة نوفل، ١٩٦٦م)، ٢١٢؛ جرجي زيدان، *تاريخ الآداب العربية*، راجعها وعلق عليها شوقي ضيف (القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٧م)، ١: ١٦١-١٦٣. وأقدم رواية للامية في *ذيل الأمالي* للقالي.

وعشرين ثم الثانية سبع عشرة خطوة،» وعليه فلا عجب من أن لا تدركه الخيل إذا عدا.»[١٧]

وقد ضرب المثل بعدوهم فقيل: «أعدى من الشنفرى» و«أعدى من السليك.»[١٨] ويعد السليك من عدائي العرب الذين كانوا لا يلحقون ولا تتعلق بهم الخيل، ومعه تأبط شرا، والشنفرى، وعمرو بن براق الذي له في عدوه ثلاثة أطلاق، الأولى كالريح الهابّة، والثانية كالفرس الجواد والثالثة يكبو ويتعثر.[١٩]

ويقال مثله عن سرعة حاجز الأسدي ممن كان يسبق الخيل.»[٢٠] فأصخ إليه وهو يعتز بسرعته في فراره على رجليه؛ فيفدي رجليه أمه وخالته لأنهما سبب نجاته:[٢١]

فدى لكما رجلي أمي وخالتي   وشدكما بين الربى والأثائب

نجوت نجاء لا أطبك طبــــه   وينزو بشرّ نزو أزعر خاضب

كما يتباهى تأبط شراً بسرعته أيضًا، فيرسم لنا صورة مجاراته لظلال الطير وتفوقه عليه:[٢٢]

أجاري ظلال الطير لو فات واحد   ولو صــدقوا قالوا له هو أسرع

ولعل خير من ينسحب على وصف بنياتهم الجسدية ما يرسمه لنا أبو كبير الهذلي في أبياته لتركيبة تأبط شرا الجسدية، فهو قوي البنية صلب العود، خفيف

(١٧) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٥-١٨٦.

(١٨) أبو الفضل محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ٢: ٣٩٤-٣٩٦.

(١٩) انظر القصة عند: الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٠ وما بعدها؛ السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، *تاج العروس*، تحقيق مصطفى حجازي ومراجعة عبدالستار أحمد فرج (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٣م)، مادة شفر و المثل «أعدى من الشنفرى،» ١٢: ٢٠٧؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ٢: ١٨٩، مادة «سلك» حيث كان يسمى «سليك المقانب»؛ ياسين الأيوبي، *معجم الشعراء في لسان العرب*، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، ٢١٣.

(٢٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢: ٤٩.

(٢١) أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي البحتري، *الحماسة*، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، الباب الخامس والعشرون، ٤٩-٥٠.

(٢٢) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٨.

الجسم، سريع العدو، جريء القلب، شديد المراس والعزيمة، أعدته الطبيعة ليكون هكذا قويّا ومنذ تكونه في رحم أمه.[٢٣] كانوا أقوياء البنية حتى أن منهم من يهزم خصمه حتى وإن علاه غيلة شأن السليك وخصمه.[٢٤]

الدافع النفسي

وأما أبرز دوافعهم النفسية فتشكلت من عوامل شتى منها: شجاعتهم وإيمانهم بالكر والفر؛ فهذا أبو خراش الهذلي يقول مخاطبًا امرأته:[٢٥]

فإن تزعمي أني جبنت فأنني أفرّ وأرمي مرّة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

ومن دوافعهم النفسية صراعهم مع زوجاتهم لفقرهم واعتراض بعضهن على التصعلك كعروة بن الورد حيث ينازعه منزعان: نفسي داخلي؛ ونفسي خارجي من زوجته، يحسمهما بقرار التصعلك:[٢٦]

فللموت خير للفتى من حياته فقيرا ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة: أين الرحيل؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟

وتخوفه زوجته من العدو لتثنيه عن التصعلك؛ ويرد عليها بأن الموت يحل بالمقيم كما يحل بالمسافر:[٢٧]

---

(٢٣) أبو تمام، *ديوان حماسته*، شرح التبريزي، ١: ٣٤٨. وانظر قصيدة أبي كبير الهذلي في وصف تأبط شرًا من عشرة أبيات يبين تركيبته الجسدية والنفسية عند شرح *ديوان الحماسة*: أبو علي أحمد ابن محمد بن حسن المرزوقي، نشره أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م)، ١: ٨٤-٩٢؛ عبدالحليم حفني، *شعر الصعاليك*، ١١٣.

(٢٤) ابن قتيبة الدينوري، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ١: ٣٦٦-٣٦٧.

(٢٥) انظر: الخالديان، *حماسة الخالديين «الأشباه والنظائر»* في دار الكتب المصرية رقم ٢٦٢، تيمورية، شعر ورقة ٣٩٧.

(٢٦) عروة بن الورد، *ديوانا عروة والسموأل*، ١٩.

(٢٧) أبو تمام، *ديوان حماسته*، شرح التبريزي، ٢: ٣٣٨-٣٣٩.

أرى أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس أخوف
لعل الذي خوفتنا من أمامنا ... يصادفه في أهله المتخوف

ومن دوافعهم النفسية طمعهم بالغنى، أو بالاكتفاء الذاتي الذي يسعى اليه عروة ابن الورد فيحاور زوجته: (٢٨)

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر ... ونامي، وإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني أطوّف في البلاد لعلني ... أخليك، أو أغنيك عن سوء محضري

وبعض نسوة عروة تشجعه على التصعلك، شأن تماضر التي دعته إلى المخاطرة كي يصيب غنيمة، فالقعود مع العيال عمل قبيح، وذلك أن المال مهابة، والفقر مذلة: (٢٩)

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى ... وجفا الأقارب، فالفؤاد قريح
مالي رأيتك في النديّ منكسا ... وصبًا، كأنك في النديّ نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ... إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة ... والفقر فيه مذلة وفضوح

ومن دوافعهم شعورهم بالإهانة وتلقي بعضهم إذلالا، كالشنفرى من بنت سيده له؛ فثار وانتقم فيقول: (٣٠)

ألا ليت شعري والتلهف ضلة ... بما ضربت كف الفتاة هجينها

وللفوارق الاجتماعية دور في إثارة دوافعهم النفسية للتصعلك، فعروة بن الورد يُعيِّر لأمه اليمانية الغريبة: (٣١)

هم عيروني أن أمي غريبة ... وهل في كريم ماجد ما يعير؟!

---

(٢٨) أبو زيد القرشي، جمهرة *أشعار العرب في الجاهلية والإسلام*، تحقيق محمد علي الهاشمي (الرياض: مطابع جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨١م)، ٢: ٥٧٩-٥٨٣.

(٢٩) عروة والسموأل، *ديوانا*، ٢٤.

(٣٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٧٩-١٩٥.

(٣١) عروة والسموأل، *ديوانا*، ٤٠.

وللون الأسود دور في تهيج دوافعهم النفسية للتصعلك، فالشنفرى غليظ الشفتين وأم تأبط شرا والسليك سوداوان.[٣٢]

فشعروا بعزلة نفسية منهم الشنفرى الذي اتخذ من الحيوانات المتوحشة المفترسة أهلا له، بدلاً من أهله لصفات فيها افتقدها في أهله:[٣٣]

ولي دونكم أهلون: سيد عَمَلَّسٌ وارقط زهلول وعرفاء جيال

هم الرهط لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

وأشعره لونه بفاصل منعه من الزواج بابنة سلامان التي كان عندها هجينا:[٣٤]

إذا ما أروم الود بيني وبينها يؤم بياض الوجه مني يمينها

ألا ليت شعري والتلهف ضلة بما ضربت كف الفتاة هجينها

ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ضلت تقاصر دونها

ومن الدوافع النفسية تردد النساء الزواج به كتأبط شراً، لأن ترملها مرتهن بأول لقاء مع العدو:[٣٥]

وقالوا لها: لا تنكحيه فإنه لأول فعل أن يلاقي مجمعا

ومنه لدوافع نفسية كالثأر، قال الشنفرى:[٣٦]

شفينا بعبدالله بعض غليلنا وعوف لدى المعديّ أوان استهلت

ومن دوافع تصعلكهم «دفاعي» ليرد ما سلب منه شأن عمرو بن براق الهمداني:[٣٧]

---

(٣٢) انظر هذا عند: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، *الاشتقاق*، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ومؤسسة الخانجي بمصر، ١٩٥٨م)، ٥٨ «مادة شنفر»؛ الأيوبي، معجم *الشعراء*، ٢١٣.

(٣٣) القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٣-٢٠٦.

(٣٤) عبدالعزيز الميمني، *الطرائف الأدبية*، قسمان، الأول ديوان الأفوه الأودي، وديوان الشنفرى وتسع قصائد نادرة (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.)، ٤٠.

(٣٥) أبو تمام، *ديوان حماسته*، شرح التبريزي، ١: ١٨٩؛ والإصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٥، «لأول نصل.»

(٣٦) التبريزي، شرح *المفضليات*، ٣٩٧.

(٣٧) أبو تمام، *كتاب الوحشيات*، ط٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٨م)، ٣١.

تقول سليمى : لا تعرض لتلفـة ... وليلك من ليل الصعاليك نـائم
كأن حزيما إذا رجا أن أردهـا ... ويذهب مالي يا ابنة القوم حالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وآنفا أبيا تجتنبك المظالـم
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهـم ... فهل أنا في ذا يآلهمدان ظالم؟!

ومن أسباب تصعلكهم كرههم البخيل وحرصه على نفع نفسه دون غيره كما يراه عروة بن الورد : (٣٨)

وإني امرؤ عافي إنائي شـركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحـد
أتهزأ مني إن سمنت وأن تـرى ... بوجهي شحوب الحق، والحق جاهد؟

ومن أسباب تصعلكهم شعورهم أنهم غير مرغوب فيهم وبحياتهم، فلا يبكي عليهم أحد إذا ماتوا كالشنفرى : (٣٩)

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ... ولم تذر خالاتي الدموع وعمتي

ثانيًا : التخطيط للغارة

لم تكن غارات الصعاليك على أعدائهم غارات عشوائية غير مدروسة، بل كانت بتخطيط مدبّر مدروس؛ وذلك لمواجهة أعدائهم من القبائل التي كانت تدافع عن نفسها وممتلكاتها بالغالي من نفس وسلاح، ولعله أمر بدهي أن يخطط لهم أعداؤهم تخطيطا مضادًا، يحاولون فيه إفساد غارتهم، والقضاء عليهم؛ وعليه فقد أعمل كل طرف منهم فكره، وتخيلوا مسرح العملية التي ستدور الغارة عليها، فعين الصعلوك المناسب للواجب المناسب، ودرسوا السبب في ذلك بعناية.

ولعل التخطيط الناجح يبنى على استخبارات دقيقة، عن العدو والأرض والأسلحة والطرق الآمنة، ومقارنة القوى بين الطرفين، وتباين نقاط الضعف والقوة ونحوها، في سبيل إنجاح غاراتهم، ويقال مثله عن أعدائهم الذين يستخبرون أمر الصعاليك وخططهم للتصدي لهم وإفشالهم في غاراتهم وبالتالي القضاء عليهم، أو مطاردتهم مخذولين دونما أسلاب على أقل تقدير.

---

(٣٨) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٢٩.

(٣٩) الأصفهاني، الأغاني، ٢١ : ١٣٩؛ التبريزي، شرح *المفضليات*، ٢٠٦.

فكيف كان التخطيط من خلال سيرهم وأشعارهم؟ أكان تخطيطا مدبرا مدروسا بني على حسابات دقيقة عن العدو والأرض والسلاح وعرفت نقاط القوة والضعف فيه، وحسب لكل منها حسابه؟ أم كان تخطيطا سريعا لم يأخذ للعدو حسابه؟ وهل كان ثمة تخطيط سريع لمواجهة العدو في ظروف طارئة غير متوقعة؟ أكل ذلك حسب ما تخيلوه من أحداث أو استناروا به بعد أن استخبروا نقاط قوة العدو وضعفه؟ وعليه، فيحسن أن ندرس التخطيط مشجّرا على النحو التالي:
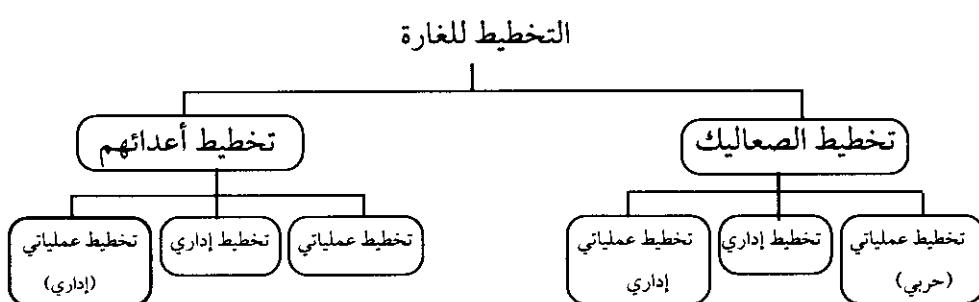
أما تخطيط الصعاليك العملياتي (الحربي)، فيعني توظيف العنصر البشري «الصعلوك» وسلاحه في الغارة؛ وأما التخطيط الإداري، فهو إعداد خطط ناجحة لتقديم الطعام والشراب والعلاج وغيره للصعلوك في ميدان المعركة؛ وأما التخطيط العملياتي الإداري فهو مشترك بينهما.

ولعل تخطيط الصعاليك العملياتي «الحربي» برز مدبرا أعني بعد دراسة مستفيضة عن طبيعة مسرح العمليات، ذلك أن طبيعة جبال السراة الممتدة من الطائف جنوبا باتجاه اليمن هي أرض جبلية متصلة على نسق واحد من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام في جميع طول السراة يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع.[٤٠]

وتعد منطقة السراة جنوبي مكة أشد مناطق الحجاز خصبا.[٤١] وفي هذه المنطقة

(٤٠) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة *العرب*، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٩٩٠م)، ١١٦-١١٨.

(٤١) *The Encyclopaedia of Islam,* "Arabia," 1:368.

كانت تسكن قبيلتا بجيلة والأزد؛ تستقبلان مطلع الشمس ببلدة تثليث وتربة وبيشة، وتربة تقع جنوبي شرقي الطائف بتسعين ميلا وتحيط بـ «تربة» أراض زراعية.[٤٢] وبتحديد أدق كانت تسكن بجيلة في «حضرة الطائف» وتجاور سراة فهم.[٤٣]

ويبدو أن قبيلة بجيلة كانت ضعيفة وتسكن في حضرة الطائف الخصبة وهي مجاورة لسراة فهم، وعليه فقد حدد الصعاليك نوع الغارة عليها بعد تخطيط مدبر وعلى النحو التالي: حددوا غاراتهم عليها رَجلَة، لضعفها وعجزها عن ردهم فهي قبيلة عرفت بالضعف.[٤٤] وقرروا رَجلَة لها لا فرسانا لطبيعتها الجبلية التي تؤمن للصعاليك الفرار بين أوديتها وشعابها وجبالها معتمدين على لياقتهم البدنية العالية، بدليل أن تأبط شراً أغار ومعه عمرو بن براقة على بجيلة، فلما خرجت في آثارهما «مضيا هاربين في جبال السراة، وركبا الحَزَن.»[٤٥]

ويبدو أن تخطيطهم نجح في قتل عدد من بجيلة عندما خصص الصعاليك غارة بقيادة تأبط شراً، ومعه رفاقه من صعاليك فَهْم؛ جارة بجيلة يعززهم شذاذ من قبائل أخرى «حتى بيتوا، بالعوص وهو حي من بجيلة فقتلوا منهم نفرا وأخذوا لهم إبلاً» كما حدد عدد الغارة برجلين قاد تأبط شراً عمرو بن براق الفهمي «وأغارا على بجيلة فأطردا لهم نعما.»[٤٦]

أما تخطيط أعداء الصعاليك، منهم قبيلة بجيلة، فصنوف منها ترصدهم للصعاليك على عين ماء، ومعرفتهم الدقيقة لكل صعلوك، ولتحقيق هدفهم بأسر تأبط

---

(٤٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٨٩؛ وعمر رضا كحالة، معجم *قبائل العرب القديمة والحديثة*، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م)، ١: ١٥-١٨، ٦٣. وتقع «تربة» شمالي شرقي مكة المكرمة ويقع وادي «تثليث» شمالي شرقي أبها وتقع «بيشة» جنوبي شرقي أبها وشمالي شرقي «نجران»، وموقع أزد السراة شرقي «القنفذة» من عسير؛ انظر: حسين مؤنس، *أطلس تاريخ الإسلام*، ط١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، خريطة رقم (٣٢)، ٥٤-٥٥.

(٤٣) البكري، معجم *ما استعجم* (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٥م)، ١: ٩٠.

(٤٤) خليف، *الشعراء الصعاليك*، ٨٣. ويبدو أن ضعفهم كان لخلاف نشب فيما بينهم فقتل خلق كثير منهم وتفرقت بطون بجيلة وتقطعوا في قبائل العرب؛ انظر: عمر رضا كحالة، معجم *قبائل العرب القديمة والحديثة*، ط٦ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩١م) ١: ٦٣-٦٤.

(٤٥) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٠.

(٤٦) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤١.

شراً، تركوا رفيقه عمرو براق يشرب بحرية لأنه لم يكن المقصود لقلة أهميته، وإغراء لتأبط شراً ليشرب مثله وهو هدفهم. (٤٧) فقال تأبط شراً يسجل نجاته من بجيلة ويبرز خطته مفتخراً بعدوه الذي أنجاه: (٤٨)

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقيت للقوم يوم الروع أرواقي

ومن تخطيط بجيلة إهمالهم لتأبط شراً إبلا عمداً ورصده ثلاثة من أشجعهم، فضللهم عن موقد نار أشعلها، ثم زحف من موقعه المرصود إلى موقع جديد بين الإبل خشية أن يكون أحد رآه وهو لا يعلم فهو لا يأبي إلا الحذر والأخذ بالحزم، ونام متهيئا للقتال وسهمه على قوسه فقتل اثنين من الرصدة وهرب الثالث، وهو حاجز بن أبي، فقال معتزا بتخطيطه السريع في المواقف الطارئة وبحيلته: (٤٩)

ترجى نساء الأزد طلعة ثابت أسيراً، ولم يدرين كيف حويلي؟

مهدت لهم حتى إذا طاب روعهم إلى المهد، خاتلت الضيا بختيل

ومن تخطيط الصعاليك العملياتي السريع أن يدفن تأبط شراً سيفه، بالقرب من منزل بيت من بجيلة فيه رجل وامرأة يصطليان على النار، ويشكو إليها الجوع والحاجة، فلما أكرماه تناوم، فقتل مضيفه وخادم مضيفه، وظفر بامرأتيهما وذهب بالإبل. إنه بالتنكر والخدعة، وبتخطيط الفاتك نجح في غارته وأعرس بزوجة مضيفه وقال: (٥٠)

بحليلة البجلي بت من ليلها بين الأزار وكشحها ثم الصق

بأنيسة طويت على مطويها طي الحمالة أو كطي المنطق

ومثله فعل السليك بن السلكة بتخطيط عملياتي مدبر وسريع وحسب مقتضيات الظروف المواتية، إذ خرج السليك يقود رفيقين له عشية فيها ضباب ومطر؛ حتى أتوا بيتا منفرداً فحدد السليك واجبات أفراد الغارة، وخطط لهم، فحدد منطقة اجتماع لهما ينتظر أنه فيها، ثم رصد حركات الشيخ وهو يعشي سوامه، حتى إذا غطى الشيخ وجهه من البرد، وحانت الفرصة للسليك قتله، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث

---

(٤٧) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٠ - ١٣١.

(٤٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٣.

(٤٩) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٣-١٥٤.

(٥٠) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٠.

ينتظر انه : [٥١]

وعاشية راحت بطانا ذعرتهـــا ‏ بسوط قتيل وسطها يتسـّيّف
كأن عليه لـــون بـــرد محـــبَّر ‏ إذا ما أتاه صارم يتلهــــــف
فبات له أهل خلاء فناؤهـــــم ‏ ومرت بهم طير فلم يتعيفـــوا
وباتوا يظنون الظنون وصحبتي ‏ إذا ما علوا نشزا أهلّوا وأوجفوا

ويخطط الصعاليك تخطيطًا مزدوجًا أحيانًا : عملياتيا وإداريا شأن تأبط شرًا الذي خرج إلى غار من بلاد هذيل ليشتار عسلا ، ويبدو أنه اعتاد أن يشتار منه كل عام . ويخطط بنو هذيل لما علموا به ، فيجدون فرصتهم لقتله ، فحاصروه في الغار وطلبوا إليه التسليم أو القتل ، لكنه راوغهم وأسال عسلاً على فم الغار ، ثم عمد إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ولم يزل يزلق ، حتى جاء سليما إلى أسفل الجبل ، فنهض وفاتهم ، وكان قد نقب في الغار نقبا ليهرب منه عند الضرورة . لقد سعى إلى جني العسل ليتغذى ، وعلم به خصمه على نحو من جمع استخبارات دقيقة عنه ، وطوقوا الغار ، ولكنه نجا فجمع تخطيطين بأن مدبرا بالنقب في الغار عند الضرورة ، وسريعًا بزق العسل ينزلق منه ، وهما تخطيطان متضادان كما ترى ، فيهما دروس عملياتية وإدارية ، وتخطيط بدهاء ومكر ، لقد حفظ تأبط شرًا الدرس نظريا وقام بتطبيقه عمليا ، فيقول مفتخرًا بعد أن نجا وترك خصمه يتحسر لإفلاته : [٥٢]

أقول للحيان وقد صفرت لهـــم ‏ وطابي ، ويومي ضيق الجحر معور
لكم خصـــلة إما أســـار ومنة ‏ وإما دم ، والقتل بالحر أجـــدر
وأخرى أصادي النفس عنها وإنها ‏ لمورد حزم ، أن فعلت ومصـــدر
فرشت لها صدري فزلّ عن الصفا ‏ به جؤجو عبل ومتن مخصــــر
فأبت إلى فَهْم ولـم أك أيبـــا ‏ وكم مثلها فارقتها وهي تصـــفر

وخطط السليك بن السلكة عملياتيا إداريًا ليغير على خصمه في جوف مراد في سبأ ، فحدد أيام الصيف زمانا ، لأنه يضمن انقطاع غارة الخيل في أرض صحراوية ،

(٥١) الأصفهاني ، *الأغاني* ، ٢١ : ١٤٣ - ١٤٥ (طبعة بولاق) .

(٥٢) الأصفهاني ، *الأغاني* ، ٢١ : ١٤٠ ؛ وانظر : جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، *مختار الأغاني في الأخبار والتهاني* ، طبع على نفقة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني ، ط١ (الدوحة : الدار العربية للكتاب ، ١٩٦٤م) ، ٢ : ٢٤٩ .

وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما أمام الخيل ولعله تخطيط ناجح، وليدير «موارد تموينه» في طريق غاراته الجدباء، من ماء كان جمعه في بيض نعام أيام الربيع ثم دفنه، لمثل هذه الأيام الصعاب في طريقه، فأفاد منه وحرم عدوه وخيله من هذه الميزة، بفضل تخطيطه الإداري، ونقاط تموينه. فكان فيما يقال: «أدل عليها من قطاة، يجيء حتى يقف على البيضة.» [٥٣]

ويفهم مما سبق أن تخطيطهم للغارة كانت دروسًا يحضر لها، وهي أشبه بخطط مدبرة وخطط معاكسة لها، وفيها إفادة من قوة العدو وضعفه؛ لوضع الخطة المناسبة في كل حالة من حالاته كما ترى.

ولعل غارات عروة بن الورد فارسًا لا راجلاً، أن يكون دليلاً على تخطيطهم في غاراتهم حسبما تمليه طبيعة الأرض، وقوة العدو المواجهة لهم؛ فعروة بن الورد كان يغير على منطقة نجد وشمالي الجزيرة العربية على خيل أحيانًا كما يبينه شعره؛ لأن هذه المناطق كانت خصبة ومربى خيول «ففي نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها.» [٥٤]
فها هو مثلاً يغير على خصمه بسربة من خيل: [٥٥]

فإني لمستاف البلاد بســـربة فمبلغ نفسي عذرها أو مطوف

وها هو يغير على خصومه ليلاً ونهاراً: [٥٦]

ولقد أتيتكم بليل دامس ولقد أتيت سراتكم بنهار

ثم ها هو ذا يحدد نوعين من غاراته: راجلاً حينا وفارسًا حينا آخر؛ في مسرحين من غارات على خصومه في «نجد وعرعر» بالقرب من سراة جنب وهو واد لطيء. [٥٧]
ويتوعد بتوزيع غاراته فيوماً على أهل نجد ويومًا على أهل الجبل في عرعر: [٥٨]

---

(٥٣) انظر ذلك عند: ابن واصل الحموي، *تجريد الأغاني*، تحقيق طه حسين وإبراهيم الأبياري (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٩م)، ٢١٥٠؛ ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ١: ٣٦٦؛ الأصفهاني، *كتاب الأغاني*، ١٨: ١٣٣-١٣٥.

(٥٤) جوستاف لوبون، *حضارة العرب*، ترجمة عادل زعيتر، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٩م)، ٦٢.

(٥٥) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٥٢.

(٥٦) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٤٢.

(٥٧) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٠-٢٩٤.

(٥٨) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٣٨.

سنفزع بعد اليأس من لا يخافنا كواسع في أخرى السوام المنفر
نطاعن عنها أول القوم بالقنا وبيض خفاف، ذات لون مشهر
فيوماً على نجد وغارات أهلها ويومًا بأرض ذات شث وعرعر

ثالثًا: التنفيذ

وتنفيذ الغارة يعد الاختبار النهائي لفهم دروس التحضير السابقة لها، مما كان من إعداد خطط ومعرفة بالأرض والعدو، واستخلاص نقاط القوة والضعف بعد تقدير موقف دقيق، وعليه فإن التنفيذ هو الإجراء النهائي الذي به يدرك نجاح الغارة أو إخفاقها. فكيف كان تنفيذهم لعمليات الإغارة، كما جاء في سير حيواتهم وأشعارهم؟ وما تسلحهم؟ ولعل أبرز خطوات التنفيذ يمكن أن تدرس مشجرة في محاور على النحو التالي:

(١)
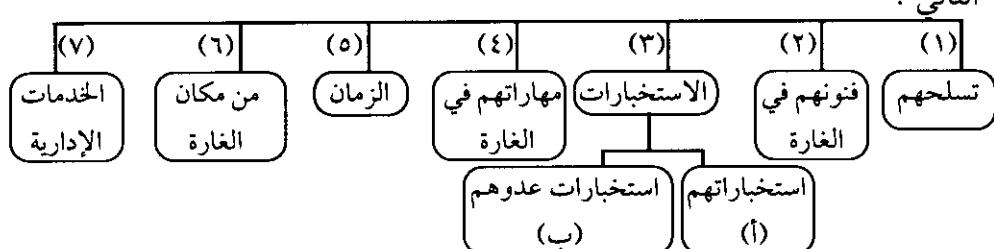
أما تسلحهم فمتعدد، فهم يعتزون به اعتزازًا لا حد له، كيف لا وسلاحهم رفيقهم في غاراتهم في صحارى تنشط فيها حيوانات من صنوف شتى؟ وإذا كان العربي يعتز بحمل السلاح عامة، فإن الصعلوك - بحق - لأشد اعتزازًا بحمله خاصة.

ومن أهم الأسلحة التي برزت في شعرهم: السيف والقوس والرمح وكنانة السهام وغيرها. أما السيف، فبرز عندهم سلاحهم الأول، ولعل باقي الأسلحة تعد إضافية تُدَّخر لظروف أخرى، والسيف صنوف، منها السيف اليماني الذي يصطحبه تأبط شرًا في ركوبه الأهوال وحيدًا: (٥٩)

(٥٩) أبو تمام، *ديوان حماسته*، شرح التبريزي، ١: ٣٤١ في الرثاء.

يركـب الهول وحيـداً ولا يصحبه إلا اليماني الأفلّ

وبالسيف اليماني يقتل به الغول فيظل تأبط شراً متكئا عليها حتى الصباح، ليتفحص تلك المخلوقة التي اعترضته ليلاً، وعلى الرغم من تشكك الجاحظ بإمكانية قتل الغول ونفي وجوده، وعزاه لسببين: أحدهما للاستيحاش الذي يمثل الشيء الصغير كبيراً، فيرى مالا يرى، وثانيهما أن راوي الأشعار هذه لا يرويها إلا لأعرابي عامي مثله. (٦٠)

غير أن تأبط شراً، على ما عهدناه فيه من سيرته وشعره، ذو قلب لا يرتجف حتى عند الأهوال المرعبات، مما يحملنا على الاعتقاد أنه إن لم يقتل الغول فعلاً فقد قتل حيوانًا بشعًا ومرعبًا من فصيلة القرود.

ولعل نظرة إلى شجاعته تثبت رباطة جنانه حين ارتعد قلب غيره من الأبطال عند صدام الأعداء. (٦١) وبسيفه اليماني المصقول أهوى على الغول وضربها بلا دهش، فخرّت على وجهها فاتكأ عليها ليلته ليتأكد من خلقتها في اليوم التالي؛ وإذ هي كرأس كلب وبساقين أخدجين غير مكتملي الخلقة وبلسان مشقوق. (٦٢)

وإني قد لقيت الغول تهـوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أيـــن أخو سفر فخلّي عن مكانـــي

فشدّت شدة نحوي فأهـوى لها كفي بمصقول يمانــــي

****

فأضربها بلا دهش فخــرت صريعا لليدين وللجــــران

فلم أنفك متكئا عليــــها لأنظر مصبحا ماذا دهـــاني؟!

إذا عينان في رأس قبيـــح كرأس الهر مشقوق اللســـان

وساقا مخدج وشواة كلـب وثوب من عباء أو شـــنان

(٦٠) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *الحيوان*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي، د.ت.)، ٦: ٢٥٠-٢٥١.

(٦١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٨.

(٦٢) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٢٩. ونسب الجاحظ القصيدة إلى أبي البلاد الطهوي؛ الجاحظ، *كتاب الحيوان*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٣ (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الداية، ١٩٦٩م)، ١: ٢٣٤؛ وانظر الغول عنده، ٧: ٣٤٠.

ومن سيوفهم المهند للشنفرى، حاد قاطع ذو لون أبيض: (٦٣)

وأبيض من ماء الحديد مهند مجذ لأطراف السواعد مقطف

ومن سيوفهم الحسام الأبيض، الحاد القاطع، لونه كالملح وثمنه باهظ بألف درهم، نقدها عند شرائه بسماحة نفس، وطيب خاطر في وقت قلت فيه الدراهم وشحت؛ إنه سلاح عمرو بن براق: (٦٤)

وكيف ينام الليل من جل مـــاله حسام كلون الملح أبيض صارم؟

صموت إذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين مـــلازم

ولعل تعلقهم بلونه الأبيض أن يكون كناية عن صفة المضاء؛ ذلك أن عروة والشنفرى وعمرو بن براق وقيس بن الحدادية أشاروا إلى اللون الأبيض في سيوفهم فعروة يقول: (٦٥)

بكفيّ من المأثور كالملح لونه حديث بإخلاص الذكورة قاطع

ومثله الشنفرى يستغني بسيفه الأبيض عن عون الناس وصداقاتهم فيقول: (٦٦)

ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع وأبيض أصليت، وصفراء عيطل

وعمرو بن براق لا يرضى لسيفه الأبيض إلا تضراب الجماجم: (٦٧)

فلا صلح حتى تقدح الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم

وقيس بن الحدادية يوظف السيف الأبيض والقنا مهوراً يستحلون بها نساء أعدائهم: (٦٨)

وإنا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحا

---

(٦٣) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ٣٧؛ والأصبهاني، *الأغاني*، ٢١، ١٨٩-١٩٠.

(٦٤) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١ : ١٧٥؛ الحسن الهمداني، *الأكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير* (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، ٢٠٢.

(٦٥) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٥٠.

(٦٦) ابن درهم، *نزهة الأبصار*، ٧٣١.

(٦٧) القالي، *الأمالي* (القاهرة: مطبعة السعادة، د. ت.)، ٢ : ١١٩؛ القالي، *كتاب ذيل الأمالي*، ١ : ٢٠٦.

(٦٨) الأصبهاني، *الأغاني* (القاهرة: مطبعة وزارة التربية والتعليم، ١٩٥٨م)، ١٤ : ١٤٤.

ومن أسلحتهم في غاراتهم السهم والقوس، وهما من أدوات الصعلوك في ترصده وهجومه ودفاعه الفردي، ولعل السهم يعد سلاحًا بعيد المدى في الإصابة، ولا يضطره إلى الاصطدام المباشر مع العدو وجهًا لوجه، كما يحدث معه بالسيف، والسهام تحتاج إلى كنانة تجمعها احتياطًا للنزال؛ فالشنفرى يصف أهمية السهام للصعلوك ويشيد بحمل ثلاثين سهما في كنانته جاهزة للقتال شأن وصفه لتأبط شرًا بأم عيال: (٦٩)

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا إذا آنست أولى العديّ اقشعرّت

ثم:

إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما في جفرها ثم سلّت

والقوس من أدوات السهم التي تنطلق عنها، وعليه فاهتمامهم بالسهم منعكس على القوس أيضًا، وللقوس عند الشنفرى سمتان هما: اللون الأصفر والصوت. أما اللون الأصفر فتغير من حرارة الشمس وتقلبات الطقس من حر وقر؛ وأما الصوت فله اندفاع شديد في الفضاء بأنة حزن ثكلى، وصوته صوت نحل إذا ما أخطأ غاره وخلاياه، فتنتابه نوبة من دوي هائل. وقوسه مرصعة وثمينة: (٧٠)

هتوف من الملس الحسان يزينها رصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زلّ عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعـــول

وقوله:

وصفراء من نبع أبيّ ظهيـــرة ترنّ كإرنان الشجي وتهتــف
كأن حفيف النبل من فوق عَجْسها عوازب نحل أخطأ الغار مطنف

ويحدثنا الشنفرى عن طريقة رمايته القوس والسهم، وأنينها بين كفيه أنين الجريح، فيودي بالباسل، ويصرع الشجاع بسهمه النافذ المعتدل السهم، وريشه نسر الخوط؛ لأنه من شجرة صلبة: (٧١)

---

(٦٩) التبريزي، شرح *المفضليات*، ٣٧٩-٣٩٧؛ البيتان ٢٣ و ٢٥.
(٧٠) القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠١، ٢٠٦؛ والأصفهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٦٠ على التوالي.
(٧١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٩٢.

ومستبسل ضافي القميص ضممته بأزرق لا نكس ولا متعـــــوج
عليه نساريّ على خوط نبعـــــة وفوق كعرقوب القطاة محـدرج
وقاربت من كفيّ ثم فرجتهـــــا بنزع إذا ما استكره النزع مخـلج
فصاحت بكفيّ صيحة ثم رجّعت أنين الأميم ذي الجراح المشـجج

والقوس ركبت بعناية بعد أن اختيرت من شجر قاس، برى الشنفرى سهامه بريا خاصًا لأعدائه: (٧٢)

أركبها في كل أحمــــر غائر وأنسج للولدان ما هو مقرف
وتابعت فيه البري حتى تركته يرف إذا أنفذته ويزفـــــزف
بكفيّ منها للبغيض كراهـــة إذا بعت حلا ما له متخـــوف

ومن أسلحتهم الرمح الذي يغلب توظيفه في الحرب، ولكنه لم يكن مستفيضا في حديثهم، ويبدو أن له واجبين في شعرهم: في الحرب والصيد، فرمح عروة بن الورد أسمر القناة دائم الغلبة: (٧٣)

وأسمر خطي القناة مثقف وأجرد عريان السراة طويل

وهو طرير من السنان المحدد أسمر اللون: (٧٤)

بكل رقـــاق الشفرتين مهنـد ولدن من الخطيّ قد طر أسمرا

والرمح يعيد لعمرو بن براق ما سلبه منه أعداؤه، وهو من عناصر القوة التي لا يستغني عنها: (٧٥)

ولا صلح حتى تقرع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم
ومن يطلب المال الممنع بالقنـــا يعش ذا غنى أو تخترمه المخـــارم

---

(٧٢) ابن درهم، *نزهة الأبصار*، ٧٢٣.

(٧٣) الحسن القيرواني ابن رشيق، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده* (القاهرة: مطبعة السعادة، د.ت.)، ٢: ٣٥، وأنشده بالإقواء.

(٧٤) عروة بن الورد، *ديوانه* (القاهرة: مطبعة السعادة، د. ت.)، ٩٧.

(٧٥) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، *المؤتلف والمختلف*، تحقيق عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦١م)، ٢٨، وعنده ذو اسمان: ابن براق وابن براقة.

ومن واجب الرمح الاصطياد به وهو الحاجة اللازبة لطعام الصعاليك، فينغرز في صدور حمر الوحش: (٧٦)

فشامت في صدورهما رماحا   من الخطي أشربت السماما

ومن أسلحتهم لوقاية الجسم الدرع والترس، وقد خفتتا في شعر الصعاليك، ويبدو أن لثقلهما وخاصة الدرع وشجاعة الصعاليك دورين في عدم استخدامهما، أو التقليل من توظيفهما، وذلك لما تتطلبه مجريات الإغارة من سرعة وخفة، غير أن قيس بن الحدادية، وقد كان فارسًا في قومه قبل التصعلك، لبس الدرع بعد أن خلعه قومه فيقول: (٧٧)

وأصبحت بعد الأنس لابس جبة   أساقي الكماة الدارعين العواليا

وأما الترس فخفيف الحمل، يناسب الصعلوك للدفاع عن مواطن القتل في جسمه؛ فمنهم من يؤثر جلد الثور ترسا يقي به السهام عنه، لاحديَدابِه وصلابته كصخر الغيل: (٧٨)

أني سينهي عني وعيدهم   بيض رهاب ومجنا أجد

(٢)

وبرزت في غاراتهم *المفاجأة* نفذها الشنفرى في ليلة عطشاء ماطرة، وقد استبد به الجوع والخوف ورعدة البرد، وقد عاد من حيث انطلق سالما بعد أن حقق هدفه، تاركا خلفه أعداءه متسائلين: من ذاك الذي طرقهم ليلاً في ذلك الجو القرور؟! أيعقل أن يكون إنسا؟ أم هو جن طرقهم ليلاً؟ ياللهول! إن كان إنسا فما كها الإنس تفعل، بأسلوب قصصي نفسي متشف: (٧٩)

(٧٦) السكري، شرح *ديوان الهذليين* (القاهرة: مطبعة دار الكتاب المصرية، د. ت.)، ٢: ٦٦.
(٧٧) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٤: ١٥٤.
(٧٨) السكري، شرح *ديوان الهذليين*، ٢: ٥٩.
(٧٩) انظر: القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٣-٢٠٦؛ عبدالقادر بن عمر البغدادي، شرح *أبيات مغني اللبيب*، تحقيق عبدالعزيز رياح وأحمد يوسف، ط١ (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨١م)، ٣: ١٩٣؛ كارل بروكلمان، *تاريخ الأدب العربي*، تعريب عبدالحليم النجار (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ١: ١٠٥؛ الشنفرى، لامية العرب - *نشيد الصحراء لشاعر الأزد الشنفرى* (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م)، ٧٤ وما بعدها.

وليلة نحس يصطلـــي القوس ربهـــا واقطعه اللاتي بها يتنبَّـــــــلُ
دعست على غطش وبغش، وصحبـتي سُعار وارزيز ووجر وأفكـــــل
فأيمت نســــوانا، وأيتمت إلـــــدة وعدت كما أبدأت والليل أليـــل
وأصبح عني بالغميصاء جالســــا فريقان مسؤول وآخر يســــأل
فقالوا: لقد هَرَّت بليل كلابنــــــا فقلنا: أذئب عَسَّ أم عَسَّ فرعل؟
فلم تك إلا نبأة ثم هوّمـــــــــت فقلنا: قطاة ريع أم ريع أجـــدل؟
فإن يك من جن لأبرح طارقـــــا وإن يك إنسا ما كها الإنس تفعل

وللحرب النفسية دور في الغارة والتي تعني: «المحاربة التي ميدانها العقل والنفس والروح، وهدفها حمل الخصم على فقد الثقة بنفسه ومقدرته وطاقته؛ بحيث يبدو وكأنه صار مغلوبًا دونما قتال؛ وذلك بالسعي للسيطرة على إرادته وشل تفكيره وحمله على الاقتناع بعجزه وقصر باعه، وصرفه عن التفكير بالمواجهة الدموية.[(٨٠)]

ويبدو أن لأسماء الصعاليك دوراً في حربهم النفسية «في تنفيذ بعض غاراتهم، ذلك أن قلوب أعدائهم تنخلع كلما سمعوها، ولا سيما في غاراتهم الناجحة على عدوهم، وسمات السرعة التي لا تدركهم بها خيولهم عند ملاحقاتهم، ولعل حوار الثقفي لتأبط شَرّاً أن يعزز ما يذهب إليه من استشراء الرعب في قلوب أعدائهم؛ فالثقفي يسأل تأبط شراً بم يغلب الرجال على دمامته؟ فيقول له تأبط شراً: باسمي؛ إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تأبط شراً فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت.» ويستبدل اسمه بحلة الثقفي فيتندر به تأبط شراً ويخاطب زوجة الثقفي متهكمًا بزوجها ساخراً من لقبه الجديد:[(٨١)]

ألا هل أتى الحسناء أن حليلهـــا تأبط شراً، واكتنيت أبا وهــــب
فهبه تسمى اسمي وسميت باسمه فأين له صبري على معظم الخطب؟
وأين له بأس كبأسي وســورتي؟ وأين له في كل فادحة قلبـــــي؟

وبرزت في غارتهم *مهاجمتهم البيت المنفرد* ولعلّ فنهم هذا يعد حتى عصرنا الحاضر من فنون حرب العصابات، وهو ذو طابع هجومي تمثله الغارة على المواقع

---

(٨٠) محمد أسد الله، صفاء، *الحرب*، ط١ (بيروت: الشركة اللبنانية للطباعة والإعلام، ١٩٨١م)، ٢٦.
(٨١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٠.

المنعزلة.[٨٢] ذلك أن السليك بن السلكة خرج مع رفيقيه عشية يريدون الغارة فأتوا بيتا منفرداً، فرصدوا صاحبه، حتى خرج يعشي سوامه وغطى وجهه بردائه من البرد فقتله السليك وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحباه، ويبدو أنه حدد لهما نقطة اجتماع، على ما يعهد في تنظيم أمر مثل هذه الغارات فسجل السليك هذه الغارة الناجحة مفتخراً بما سلبه، وساخراً بأهل القتيل وظنونهم بأسباب تأخره عنهم.[٨٣]

كما ظهرت في غارتهم *معالجتهم للأمور الطارئة* وتشجيع الخائف وحمايته ليطمئن، شأن تأبط شراً وحمايته لرفيقه مرة بن خلف الذي أرعدت عضده، وخاف من القتل فحماه تأبط شراً بظهره ونجيا بعد أن جرح تأبط شراً، فسجل هذه الحادثة:[٨٤]

وقلت له: كن خلف ظهري فإنني سأفديك، وانظر بعد ما أنا فاعل

فعاد بحد السيف صاحب أمرهم وخلوا عن الشيء الذي لم يحاولوا

وأخطأهم قتلي، ورفعت صاحبي على الليل، لم تؤخذ عليه المخاتل

وفي غاراتهم *تحديد واجبات* كل فرد فيهم من جهة *وتطبيق قاعدة الإسناد والهجوم من جهة أخرى*، كتلك الغارة التي كانت تتألف من ثمانية صعاليك، فيهم تأبط شراً والمسيب، وواجبهما الهجوم على العدو بالسيف، ومنهم الشنفرى وآخرون، وواجبهم حماية قسم الاقتحام كما في شعر الشنفرى:[٨٥]

فشنّ عليهم هزة السيف ثابت وصمم فيهم بالحسام المسيّب

وظلت بفتيان معي أتقيهم بهن قليلاً ساعة ثم جنبوا

نسوق بنسر كل ريع وتلعة ثمانية والقوم رجل ومقنب

وأظهروا من مبادىء قتالهم مبدأ هروبهم أمام عدوهم، ولعله من قواعد حرب العصابات حتى الآن على ما يراه ماوتسي تونغ، إذ عد التراجع المنهجي أمام تقدم معاد قوي من قواعد حرب العصابات، لأن المعركة ساعتئذ بينهما غير متكافئة.[٨٦]

---

(٨٢) هيثم الأيوبي وآخرون، *الموسوعة العسكرية*، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١م)، ١: ٧٢٤.

(٨٣) الأصبهاني، *الأغاني*، ١٨: ١٣٤-١٣٥؛ الميداني، *مجمع الأمثال* (القاهرة: طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ)، ١: ٣٩٩، وقد أشرت إلى الحادثة ذات الرقم (٥١) في البحث.

(٨٤) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٨.

(٨٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٢؛ والميمني، *الطرائف الأدبية*، ٣١-٣٢.

(٨٦) الأيوبي وآخرون، *الموسوعة العسكرية*؛ تكتيك حرب العصابات وقواعد حربهم، ١: ٧٢٥.

وعليه فلا يجد الصعلوك حرجًا في هزيمته أمام عدوه حتى لو اضطر أن يترك أصحابه الصعاليك - على حرصه على سلامتهم - في أرض المعركة لينجو بنفسه، شأن تأبط شرًا الذي نفذت سهامه وفر بعد ذلك لما رأى دفاع العدو قنفذيا يهاجمونه من جميع الجهات، فلنسمعه يفلسف هزيمته ويبين أسبابها لزوجته التي تلومه لتركها ابن عم لها صعلوكا كان معه: (٨٧)

تقول: تركت صاحبًا لك ضائعا وجئت إلينا فارغًا متباطنا
إذا ما تركت صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبت آمنا
وما كنت أباء على الخل إذ دعا ولا المرء يدعوني ممرًا مداهنا

فالقوم من عوص مسلحون، وهجومهم عليه «قنفذي» فيهرب خشية دهمه وقتله: (٨٨)

وكرّي إذا أكرهت رهط وأهله وأرضا يكون العوص فيها عجاهنا
ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم ورائي نحل في الخلية واهنا

وتارة يهرب ناجيا بسلبه وهو سبب مقنع في نظره: (٨٩)

حتى نجوت ولما يأخذوا سلبي بواله من قنيص الشد غيداق

والهرب عندهم مفخرة لا مسبّة، لأنه فرار من قتل محقق كما يفخر حاجز الأسدي بسرعته للنجاة: (٩٠)

عشية كادت عامر يقتلونني لدى طرف السلماء راغية البكر
فما الظبي أحطت حلقة الظفر رجلة وقد كاد يلقى الموت في حلقة الظفر

ويفدّي حاجز رجليه اللتين أنقذتاه من القتل بأمه وخالته؛ فهما سلاحه الرئيس في النجاة: (٩١)

فدا لكما رجليّ أمي وخالتي وشد كما بين الربى والأثائب
حططت على جنبي الشمال وعيقوا حطوط رباع محضر الحرب قارب

---

(٨٧) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٥.
(٨٨) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٥.
(٨٩) البحتري، حماسته، ٥٢.
(٩٠) البحتري، حماسته، ٥٠.
(٩١) البحتري، حماسته، ٤٩-٥٠.

والشنفرى على سرعته يترك حذاءه عند الهزيمة تخففا وطلبًا لمزيد السرعة ولخلقها المعيق لسرعته: (٩٢)

ونعل كأشلاء السمان تركتها   على جنب مور كالنحيزة أغبرا

(٣)

واعتمد الصعاليك على استخبارات دقيقة عن أعدائهم، بطرق شتى أبرزها التنكر والتحايل بالفقر شأن تأبط شرًا الذي دفن سيفه، وتنكر برجل بائس فقير؛ يشكو إلى رجل بجلي فقره وجوعه، فلما أكرمه وعرف قوته المؤلفة من عبده وزوجته الأمة، تناوم ثم قتل مضيفه وعبده وعرّس بالسيدة وذهب بالإبل وسجل هذه الحادثة الناجحة: (٩٣)

بحليلة البجلي بت من ليلها   بين الأزار وكشحها ثم الصق

كما يستخبرون قوة عدوهم بالتنكر، شأن السليك ورفيقيه مع الرعاة في جوف مراد باليمن فقال لهما: «كونا مني قريبين حتى آتي الرعاء فأعلم لكما علم الحي أقريب هو أم بعيد؟ فإن كان قريبا رجعت إليكما، وإن كان بعيدا قلت لكم قولاً فاغيرا على من يليكما.» وحدد لهما فيما يبدو *نقطة اجتماع*، ولما استخبر الأمر علم أن الحي بعيد، فغنى السليك ليطرب الرعاء، ولينهبا الإبل فهو «أشبه برموز الشيفرة» في عصرنا فأغارا على الإبل وسلباها. (٩٤)

يا صاحبيّ، ألا لا حي بالوادي   إلا عبيد وآم بـــــين أذواد

اتنظران قليلا ريث غفلتهـــــم   أم تعدوان فإن الريح للعادي؟

ومن طرق استخباراتهم توظيفهم عنصر *الدلالة والهداية* فيما بين تأبط شرًا ومرّة ابن خلف، فلما كانت هداية مرة بن خلف نعس فجار عن الطريق حتى وقعا بين جبال ليس فيها جبل متقارب، وإذا البيض والفراخ بظهور الأكم، ومياه يصيح الطير عليها

---

(٩٢) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ٣٥.

(٩٣) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٠.

(٩٤) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ٢٣٥، وعنده (الربح للعادي)، بمعنى الغلبة والقوة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ١: ٣٧٣.

فقال تأبط شراً: هلكنا واللات يا مرة، ماوطىء هذا المكان إنس قبلنا! وأفاد بكشفه الموقع استخبارات دقيقة عن الموقع المذكور. (٩٥)

ومنها *استراقهم السمع* لأصوات عدوهم بالليل خاصة، فكان يضرب المثل بقوة مسمعي تأبط شراً؛ إذ كان يسمع وجيب قلوب الكمائن من أعدائه؛ وذلك بأن يصيخ بمسمعيه إلى الأرض يتسمّع. (٩٦)

ومنها توظيفهم سرعتهم لإنذار قومهم من الأعداء شأن السليك وإنذار قومه. (٩٧)

ومن طرق استخباراتهم وقد أكثروا الشعر فيها هي *المراقبات*، حيث يتخذ الصعاليك موقعًا متوثبًا ومراقبًا من فوق علياء الجبال المشرفة على المناطق من حولها، وواجبهم رصد العدو، واستخبار أمره، وإعلام الصعاليك لاتخاذ الإجراءات المناسبة. فهذا أبو خراش الهذلي يصف مراقبة تكشف ما حولها، وهو أهم الواجبات للمراقب فيقول: (٩٨)

لست لمرة إن أوف مرقبة يبدو لي الحرث فيها والمقاضيب

والمراقب الراصد حذر في تحركاته، ولذا يغلب عليه الثبات كأنه صنم، ولعله تلفت طريف إذ أن كثرة الحركات تكشفه، وتفشل خطته إذ المقصود أن يستخبر أمر الخصم ولا يستخبروه، فيشيد أبو خراش بالراصد المتربص في مرقبته كالصنم، لكنه خفيف الجسم، نشيط: (٩٩)

يظل في رأسها كأنه زلم من القداح به خرس وتعقيب
سمح من القوم، عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنابيب

---

(٩٥) الأصبهاني، *كتاب الأغاني*، ٢١: ١٥٨.

(٩٦) انظر مثلاً عند: ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ١: ٣٦٦؛ البغدادي، *خزانة الأدب*، ٣: ٣٤٦؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣١-١٣٢.

(٩٧) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ٢: ٦٦٤؛ محمود أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، ط٢ (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٣م)، ٨٠.

(٩٨) أبو ناجي، *الشنفرى*، ٧٨.

(٩٩) عروة بن الورد والسموأل، *ديوانا*، ٥٥.

والمراقب يقلب الأرض والفضاء بطرفه، ينتصب كأصل شجرة؛ لا يبرح مكانه ولا يتحرك - فالحركة تكشفه - يبدو نشيطًا في عمله، فيحرس المنطقة ويعطي إنذاراً أوليّا عن العدو، خاصة إذا انشغل عروة بن الورد بالطهي في منهل مخوف؛ ولعله تنبه طريف، واحتراف في أمر الجندية المعاصرة فيقول:(١٠٠)

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفـــة　　بعثنا ربيئا في المرابىء كالجذل

يقلب في الأرض الفضاء، بطرفه　　وهن مناخات، ومرجلنا يغلي

ويتخذ المراقب التوثب شعاراً له، فيقعي فوق المرقبة، لواجبين هما: ليغنم الغازي أو ليدرك الثأر شأن الشنفرى.(١٠١)

ومرقبة شماء أقعيت فوقها　　ليغنم غاز، أو ليدرك ثأر

ويستأنف المراقب واجبه على المرقبة ليس في النهار فحسب، بل في الليل أيضًا، إذ يرصد خصمه وهو في أعلاها - ولكن لا يبدو لي قمتها - بل يرصد في سفحها لأن تجنب خط الأفق ضرورة لازبة يمكن كشفها من بعيد، إلا إذا طبق - على ما يدرك - من مهارات المعركة كالاختباء والزحف والترقب، وهو راقد على حد ذراعيه والليل يلتف حوله محدقا به:(١٠٢)

ومرقبة عيطاء يقصـــر دونهـــا　　أخو الضروة الرجل الخفيف المشفق

نميت إلى أعلى ذراها وقد دنـــا　　من الليل ملتف الحديقة أســـدف

فبت على حد الذراعين مجذيـــا　　كما يتطوى الأرقش المتقصـــف

والمرقبة عند تأبط شراً تعلو سائر المرقبات، معقدة ذات تجاعيد كعجوز شمطاء ترتدي ثيابا بالية، ينتهض إليها بعد أن ينتصف الليل لينفذ خططه:(١٠٣)

ومرقبه يا أم عمرو طـــمرة　　مذبذبة فوق المراقب عيطـــل

نهضت إليها من جثوم كأنها　　عجوز عليها هدمل ذات خيعل

---

(١٠٠) ابن درهم، *نزهة الأبصار*، ٧٢٣.

(١٠١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٩-١٩٠؛ ابن منظور، *لسان العرب* (مادة هدمل وجثم)؛ خليف، *الشعراء الصعاليك*، ١٨٩.

(١٠٢) الأصبهاني، *الأغاني* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، ٢١: ١٨٩-١٩٠، وعنده (ومرقبة عنقاء).

(١٠٣) السكري، *شرح ديوان الهذليين*، ٢: ١٥٩-١٦٠؛ وخليف، *الشعراء الصعاليك*، ١٨٩-١٩٠.

وتختار المرقبة في نتوء مشرف حاد كحد الفأس، يشرف على طريق ضيق كنفق يتسرب الناس فيه بعضهم في إثر بعض، وفي نتوئه يقام عرش يستظل الراصد تحته ويختبيء فيه، وهو متهدم قديم لم يبق منه الأعودان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض: (١٠٤)

في ذات ريد كذلق الفأس مشرفة   طريقها سرب بالناس دعبوب
لم يبق من عرشها إلا دعامتها   جذلان: منهدم منها ومنصوب

ولا يقتصر واجب المراقب على الأفراد، بل تسند مهمة المراقبة إلى القائد كتأبط شراً، الذي يسبق غيره إلى قمة المراقبة العالية الحادة كأنها أسنان رمح، ويحدد الزمان صيفا لاهبا، ولم يبق من عرشها إلا مثل علامة يتخذها الرجل على ظهر بيته في الجاهلية ليدلل على شرفه، خشبتان: أحدهما قائمة والأخرى ملقاة يستظل بها الطلائع في القلال إذا اشتد الحر: (١٠٥)

وقلة كسنان الرمح بارزة   ضحيانة في شهور الصيف محراق
بادرت فتنتها صحبي وما كسلوا   حتى نميت إليها بعد إشراق
لا شيء في ريدها إلا نعامتها   منها هزيم، ومنها قائم باق

وقد ينسق راصدان فيما بينهما على مرقبتين، وبينهما رموز وإشارات يتعارفان عليها؛ كتأبط شراً ومرّة بن خلف إذ صعد كلاهما إلى قنة جبل وبينهما إشارة إذا ألح أحدهما للآخر بثوبه فهي حياة، وإذا ألح بالسيف فيعني الموت. (١٠٦)

ومن طرق استخباراتهم *اعتمادهم على خبراتهم* في مجاهل الصحراء؛ شأن تأبط شراً الذي اجتاز مجاهيل الأرض الصعبة في جرأة، وتقحمها دونما دليل: (١٠٧)

وشعب كشل الثوب شكس طريقه   مجامع صوحيه نطاف مخاصر

---

(١٠٤) التبريزي، شرح *المفضليات*، أبيات ١٦-١٨، ص٥١.

(١٠٥) الخطيب التبريزي، شرح *اختيارات المفضل الضبي*، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ١٢٥-١٢٨.

(١٠٦) الأصمعي، *الأصمعيات*، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٥م)، ١٣٥-١٣٦.

(١٠٧) القالي، *الأمالي*، ٢١: ١٤٨.

به من سيول الصيف بيض أقرهــا جبار يضم الصخر فيه قراقـــر
تبطنته بالقوم لم يهدنـــــي له دليل ولم يثبت لي النعت خابر

(٤)

ولتنفيذ خططهم في غاراتهم وظفوا فنونا من *مهارات المعركة* منها: *الزحف على البطن* وتغييره موقعه بعد أن اصطلى النار، واتخذ موقعًا آخر، بين الأبل، وسهمه على كبد قوسه، فقتل متربصين به وانهزم الثالث شأن تأبط شرًا مع خصومه الرصدة.[١٠٨]

ومن مهارة المعركة تقليد الشنفرى مشي الضبع بأن ينزع نعلاً ويلبس أخرى ويضرب برجله حتى يموه على الناس فيظنوه الضبع، لأن «بالضباع عرجًا خلقة» على ما يراه الجاحظ.[١٠٩] غير أن الدميري يراها غير عرجاء وإنما يتخيل للناظر للدونة في مفاصلها ورطوبة في الجانب الأيمن منها.[١١٠] ولكن خصمه أدرك حيلته بتقليده الضبع وكان سببًا لمصرعه، وهذه استخبارات معاكسة.[١١١]

ومن مهارة المعركة التحذير من *العبث بالسلاح* وقعقعته لأنه يهتك سر الغارة، وينبه الخصم، فيفشل عنصر الأمن والمفاجأة، ولذا فإن تأبط شرًا حذر عامر بن الأخنس قائد الغارة على بني نفاثة - وكانوا في سرية من قوم تأبط شرًا، وقت السحر، وقد أوشكوا على مداهمة الخصم ومفاجأته - حذره من شد قوسه المسترخية لما له من خطورة في فقد عنصر المفاجأة فقال له: «بعض حطيط وترك يا عامر.» وفعلاً سمعه شيخ من بين نفاثة فاستنفر قومه، والحي خلوف، فلبست النساء السلاح وتوهموهن رجالاً ففشلت الغارة.[١١٢] ولعل هذا التحذير ينسحب على مهارات المعركة حاليًا التي يحذر الجندي من طلقة طائشة لئلا تفسد الغارة.

---

(١٠٨) الجاحظ، *الحيوان*، ١: ١٤٣.

(١٠٩) كمال الدين محمد بن موسى الدميري، *حياة الحيوان الكبرى*، ط٥ (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١٩٧٨م)، ١: ٦٤٠.

(١١٠) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٢.

(١١١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٦٣.

(١١٢) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٠.

ومن مهارة المعركة دقة الرماية وخاصة الرماية الليلية التي امماز بها الصعاليك شأن تأبط شراً والذي كان لا يبصر شيئًا في الليل يتوجس منه خيفة إلا رماه، وعليه فقد رمى سواداً غير مرة وكان لا يخطئه، وكان لدقة إصابته يقول لخصمه أأطرفك: أي أرمي عينيك؟ (١١٣)

ويوظف خصمهم *استخباراتهم المعاكسة* ، فيكمنون للشفرى، ويخططون لرصده على مصدر ماء، لّما علموا من امرأة أطعمته إقطا وأخفت الماء عنه عمداً ليعطش، ووصفت لهم أفواق نبلة فعرفوها في قتالهم فرصدوه على ركي لهم، وقد أجمعوا على ألا يتحرك المصاب فيهم بنبال الشنفرى التي لا تخطىء، والتي يرمي عادة كل سواد يراه ليلاً، على أن يتدرع كل راصد بنعله على مقتله، فأسروه وقتلوه. (١١٤)

(٥) و (٦)

ويحدد بعض الصعاليك زمان غاراتهم، فتبدو الغارة بصورة أشبه بتقرير يقدمه قائد الغارة بعد عودته سالمًا من أرض العدو، ولعل فسحة البحث لا تتسع لاستقراء الظرفين هذين، وعليه سأمثل بشاهد دال لأن في القليل تدليلاً عن كثير؛ فالشنفرى يصف طريق غارته ولم يحدد الزمان من مشعل إلى جبا، حيث خرج من موقع مشعل الذي بين مكة والمدينة وتوجه إلى ديار بني سلامان جنوبًا باتجاه اليمن وقد قتل مهديا في منى وهو يؤدي طقوسا تعبدية، وكانت غارته على خيل: (١١٥)

خرجنا من الوادي الذي بين مشـعل   وبين الجبا، هيهات أنشئت سربتي

(١١٣) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٩٤.

(١١٤) التبريزي، شرح *المفضليات*، ٢٠١-٢٠٦.

(١١٥) التبريزي، شرح *المفضليات*، ٢٠١-٢٠٦؛ وانظر الموقع عند كل من: التبريزي، شرح *المفضليات*، ٢٠٢-٢٠٦؛ ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، عني به محمد أمين الخانجي، ط١ (القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٩٠٦م)، مادة «جبا» و «مشعل»؛ صفي الدين البغدادي، *مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع*، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي وشركاه، ١٩٥٤م)، ٣: ١٢٧٥، وجبا من الروشة ومشعل بين مكة والمدينة؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٧.

وأمشي على الأرض التي لن تضرني لأنكي قومًا أو ألاقي حمـــــتي

ويطبق في غارته *التخفي والتستر* حتى لا يدرك ويبدو أنه خبير في مسالكها إلى أن نفذ خطته: (١١٦)

قتلنا قتـــيلا مهـــــديا بملبـــــد جمار «منى» وسط الحجيج المصوت

ويجلّي تأبط شرًا موقعة دارت رحاها بينه وبين غول في منطقة اللوى ليلاً؛ فنعرف أن اللوى في منطقة اليمامة، وندرك كم لقي من العنت في قتلها كما يصف في قصيدته: (١١٧)

فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولا!

فطالبتها بُضعها فالتـــوت بوجه تغوّل فاســتغولا

فمن كان يسأل عن جارتـي فإن لها باللوى مــنزلا

(٧)

وأما الخدمات الإدارية فهي خدمات تقدم إلى المقاتلين، لإنجاز أعمالهم منها الطعام، والماء، والسلب، والحراسة، واللباس، ونحوها.

أما طعام الصعاليك فتنوع مصدره، فكان صيدهم الحيوانات البرية نظرًا لسرعتهم أو بسهامهم «فقد كان تأبط شرًا أعدى الرجال لا يفوته ظبي إذا عدا خلفه.»(١١٨) وطعامهم كان مما يسلبونه كما يقول تأبط شرًا: (١١٩)

(١١٦) التبريزي، *شرح المفضليات*، ٢٠١-٢٠٦؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٨٩، «قتلنا حزاماً مهدياً» محلهما بين الحجيج المصوت.

(١١٧) انظر موقع اللوى عند: ابن منظور، *مختار الأغاني*، ٢: ٢٤٤؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٥٣، ٢٦٧؛ وفي «اللوى» معازف للجن وموقع اللوى في منطقة اليمامة بين الدام والرملة؛ وكارلو نالينو، *تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر بني أمية*، اعتنت بنشره مريم نالينو، تقديم طه حسين، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٧٢-٧٤؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٢٨.

(١١٨) الأيوبي، *معجم الشعراء*، ٨٨ ورقمه ١٣٤؛ والبغدادي، *خزانه الأدب*، ١: ١٣٧-١٣٨.

(١١٩) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٦، ١٥٣ يطرد الإبل المهملة عمدًا.

ولست أبيت الدهر إلا على فتى أسلبه أو أذعر السرب أجمعا

وأما اعتمادهم على الصيد في غذائهم فعلى حيوانات الصحارى، شأن عروة بن الورد الذي شوى أرنبًا وحفر لفضلاته حفرة طمرها فيها. (١٢٠)

وتنوع طعامهم فمنه اللحم كما أشرنا، ومنه العسل ولعل محاولة تأبط شرًا أن يشتار كل عام مرة دليل على ذلك، وقد هرب بخدعة وحيلة مدبّرة. (١٢١)

وطعام الصعاليك قليل، فلا بد من تقنينه وإدارة شؤونه كما فعلت أم العيال «تأبط شرًا» في سياسة تقنين الطعام التي امتدحها الشنفرى بقوله: (١٢٢)

وأم عيال قد شهدت تقوتهم إذا اطعمتهم أوْ تَحتْ وأقلّت

وما أن بهاضنٌ بما في وعائها ولكنها من خيفة الجوع أبقت

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ونحن جياع، أي آل تألت؟!

وأما الماء، فكانت مصادره قليلة في الصحراء، وكان في كثير من حالاته مرصوداً ينغص على الصعلوك شربه، وقد قتل عليه الشنفرى، وكان سابق القطا الكدري إلى مصدر الماء ليشرب منه قبله. (١٢٣)

ويبدو أن الصعاليك كانوا يشربون حليب النياق إذ ربما كان يبل صداهم، عوضًا عن الماء حينا. (١٢٤) ومن شؤونهم الإدارية السلب وقد كانوا يظفرون به أحيانًا ويخسرونه أحيانًا أخرى. (١٢٥) وينهزمون ليظفروا به أحيانًا شأن تأبط شرًا: (١٢٦)

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبي بواله من قبيض الشر غيداق

---

(١٢٠) الأصبهاني، *الأغاني*، ٣: ٧٣، وكان تأبط شرًا ينتقي أسمن الظباء ويجري خلفها فلا تفوته لسرعته، *الأغاني*، ٢١: ١٢٨؛ عروة بن الورد، مقدمة *ديوانه*، ١٠-١١.

(١٢١) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٤٠.

(١٢٢) التبريزي، *شرح المفضليات*، أبيات ١٩-٢١.

(١٢٣) انظر ذلك عند: ابن درهم، *نزهة الأبصار*، ٧٢٧-٧٣١؛ الميمني، *الطرائف الأدبية*، ٣٩ خبر مقتله؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٩٤.

(١٢٤) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ٢: ٦٧٤.

(١٢٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٨. وقد خسر تأبط شرًا السلب.

(١٢٦) التبريزي، *شرح المفضليات*، ٢٧.

ومن خدماتهم الإدارية النوم المنغّص بالحراسة الذي تنوع، فمنه: أن قلب الصعلوك سلاحه الأول وسيفه الثاني يحميه، فنومهم قليل، وكثيراً ما كانوا في أرق نفسي يمثلهم عمرو بن براق بقوله: (١٢٧)

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم غرار إذا نام الخلي المسالم

والشنفرى قلق نفسيّا؛ طريد جنايات، تنتابه هموم، كالحمى يطردها فتعود إليه من فوقه ومن تحته: (١٢٨)

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيّها حمّ أول

تبيت إذا ما نام يقظى عيونها حثاثا إلى مكروهة تتغلغل

وإلف هموم ما تزال تعوده عياداً كحمّى الربع أو هي أثقل

إذا وردت أصدرتها ثم إنها تثوب فتأتي من تُحيت ومن عَلُ

ونومهم بحذر، وسلاحهم على أهبة الاستعداد، وفي متناوَل أيديهم كتأبط شراً الذي قتل راصديه وولى الثالث منهم مدبراً. (١٢٩) وأماكن نومهم في صحراء قاسية؛ قرا في الشتاء وحراً في الصيف، كما يذكره الشنفرى: (١٣٠)

ويوم من الشعرى يذوب لعابه أفاعيه من رمضائه تتململ

نصبت له وجهي ولاكنٍّ دونه ولا ستر إلا الأ تحمي المرعبل

****

وليلة نحس يصطلي القوس ربها واقطعه اللاتي بها يتنبَّلُ

فأيمت نسوانا وأيتمت ولدة وعدت كما أبدات والليل أليل

كانوا متيقظي القلوب إذا ما نامت عيونهم، حذارى من المفاجأة، تكبر الأصوات في مسامعهم، فيسمعون نقف الحصى هدة صخر، كما يصف أبو كبير زوج أم تأبط شراً يقظته، وهو يحاول قتله. (١٣١)

---

(١٢٧) الحسن الهمداني، *الأكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير*، ط٢ (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، الكتاب العاشر، ٢٠٢-٢٠٤.

(١٢٨) القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٥.

(١٢٩) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٣.

(١٣٠) القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٥.

(١٣١) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ١: ٦٧٣-٦٧٤.

وأما لباسهم فأسمال؛ تقيهم من ظروف الطقس، وشعرهم ملبد بعيد فليه، كما يصفه الشنفرى: [١٣٢]

نصبت له وجهي ولاكنّ دونــــه ولا ستر إلا الأ تحمي المرعبل

وضاف إذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجــل

وأما قواعدهم فكانت إما في أماكن إغارتهم؛ وإما في أماكن عشائرهم، ليحمد سلبهم؛ قال الشنفرى: [١٣٣]

فلما رآنا قومنا قيل: أفلحـــــوا فقلنا: اسألوا عن قاتل لا يكذب

ومن شؤونهم الإدارية *الطبابة* التي أشاروا إليها على نحو من التوقي من الزواحف ولدغ الحيات، كأنهم مع المثل المشهور «درهم وقاية خير من قنطار علاج»؛ ذلك أن تأبط شرًا اتخذ مسراه بين البردين: يعني أول الليل وآخره؛ ذلك لأن في الأول تمور الحيات خارجة من جحورها، وفي آخره تمور مقبلة إليها. [١٣٤]

كما ذكروا الجراح وبعض إسعافاتهم من السهام شأن تأبط شرًا الذي أسعف نفسه من أثر جرح وولّى مدبرًا إلى زوجه التي ولولت لما رأته مجرحًا، فهدأ روعها إذ هو أهون من القتل: [١٣٥]

تولول سعدى إن أتيت مجرّحاً إليها وقد مَنَّت عليَّ المقاتــل

كما برز في شعر الشنفرى رثاء الأعضاء منها يده التي بترت بسهم معاد قبيل مقتله وكانت عليها شامة فقال: [١٣٦]

لا تبعدي إما هلكت شامة فرب واد نفرت حمامــه

ورب قرن فصلت عظامه ورب خرق قطعت فتامه

وذكروا في أشعارهم الخسائر البشرية منهم ومن أعدائهم، فالشنفرى يذكر خسائر عدوه من بجيلة وعددهم ثلاثة: راجلان وفارس: [١٣٧]

---

(١٣٢) القالي، *ذيل الأمالي*، ١: ٢٠٥.
(١٣٣) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ٣١-٣٢.
(١٣٤) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٠.
(١٣٥) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٥٨.
(١٣٦) الميمني، *الطرائف الأدبية*، ٤٠؛ والأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٩٤.
(١٣٧) الميمني، *الطرائف الأبية*، ٣٢.

وقد خر منهم راجلان وفارس كمي صرعناه وخوم مسلب

كما يرثون قتلاهم من الصعاليك شأن تأبط شراً يرثي صعلوكين فقدهما في غارة: (١٣٨)

أبعد قتيل العوص آسى على فتى وصاحبه أو يأكل الزاد طـــارق؟

كما يعينون مكان دفن تأبط شراً في غار رخمان في ديار هذيل كانه توثيق كقول مرّة بن كعب فيه: (١٣٩)

إن العزيمة والعزى ثويهمـــــا أكفان ميت ثوى في غار رخمان

ويحدد أكفانه من كرسف وكتان حقيقة، مع أن أكفانه نسب طيب وريش من ندى على نحو مجازي:

إلا يكن كرسف كفنت جيّـــد ه ولا يكن كفنًا من ثوب كتـــــــان

فإن حرا من الأنساب ألبســـه ريش الندى، والسدى من خير أكفان

إنه – كما ترى – الاعتزاز الصعلوكي بنفسه، وحسبه، حيّا وتأبيّ على ظروف الموت وأكفانه ميتًا، فهو في الحالتين اعتداد بنفسه عنيد.

ومَخْلَصُ القول: إن ظاهرة الغارة عندهم كانت – غالبًا – محكمة الخطة ومدبرة؛ يراعى فيها استعداداتهم *الجسدية والنفسية*، فالجسدية كانت تتطلب منهم لياقة بدنية متميزة، حتى لا يعلق بهم خصمهم *رجلة وخيالة*. والنفسية تتمحور فيها تأبيهم الاستجداء من أحد، ورباطة جأش يخاطرون بأنفسهم لتحقيق مكاسب كانوا يسدون بها رمقهم في عيش ضنك غالبًا، وكان ينازعهم منزعان لتحقيق أهدافهم هما: نفسي داخلي لسد الرمق، ونفسي خارجي حين تشجع بعضهم نساؤهم على التصعلك «فالقعود مع العيال قبيح،» أو يخوفنهم من العدو لثنيهم عن المخاطرة، وفي الحالتين كانت تتشكل عندهم ردود فعل نفسية متباينة، كثيراً ما حسموها بقرار التصعلك والمغامرة.

كان تخطيطهم – في غير غارة من غاراتهم – محكمًا، يعتمد على استخبارات

---

(١٣٨) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢١: ١٣٧.

(١٣٩) انظر هذه المواقع عند: الحموي، معجم *البلدان*، ٤: ٢٤٢. ورخمان في ديار هذيل؛ البغدادي، *مراصد الاطلاع*، ٢: ٦١١؛ أبو تمام، *الوحشيات*، ١٣١، قطعة (٢٠٩).

دقيقة عن عدوهم وعن طبيعة الأرض التي ينوون أن يشنوا غاراتهم عليها ، وبناء على دراساتهم المحكمة فكانوا يحددون نوعية الغارة وعدد أفرادها ، ثم أهي غارة راجلة - إن كانت الأرض جبلية وعرة - أم خيَّالة - إن كانت طبيعة الأرض أو ما يمكن أن يسمى " مسرح عمليات الغارة» - صحراوية أو سهلية .

وقد حسبوا للخدمات الإدارية حساباتها ، معتمدين على معرفتهم بمصادر المياه ، وإن كانت شحيحة دفنوا الماء في بيض النعام لحين الحاجة ، واعتمدوا (تقنين الطعام) وصيد الحيوان ؛ إما برميه أو عديا خلفه معتمدين على لياقة بدنية عالية ضرب بها المثل .

وتوقوا من لدغ الزواحف ما أمكنهم ؛ وذلك لمعرفتهم بمواقيت خروجها من جحورها وعودتها إليها ، كما كانت لديهم معلومات عن إسعافات الجرحى ، أما القتلى فأعزاء على الأحياء منهم فهبوا يرثونهم ، بقلوب يعتصرها الألم ، لفقدان شجاعتهم وصبرهم على مر القتال ، ويحددون أحيانًا مواقع دفنهم على نحو توثيقي .

ولعل في درس الغارة هذه : إعداداً ومنهجًا وأسلوب قتالٍ أن يشي بعض أساليبه بمبادىء يعرفها رجال حرب العصابات في وقتنا الحاضر .

The Raid in the Poetry of the *S^caaleek* in the Pre-Islamic Period

Hassan M. A. Rababah

Assistant Professor, Department of Arabic, Philadelphia University,
Sweileh, Jordan

Abstract. *S[c]aaleek's* poetry of the pre-Islamic era betrays a dominant characteristic of war; namely, the "raid." Raids were usually carried out amongest Arab tribes in Arabia for reasons related, among others, to poverty, revenge, and the absence of a political authority that could solve and control disputes. This topic (Raid in the poetry of the *s[c]aaleek*) is new, and has not been addressed from military and literary purviews. Dividing this paper into three sections, I address in the first the term "raid" and the motivations for the event of a "raid." In the second, I treat planning out the "raid," and in the third section, I concentrate on carrying out the "raid."

The term "raid" has not been fully defined in our dictionaries; this lack is, perhaps, due to disinterest in pursuing the development of its signification. Planning out the "raid" is divided into three domains: the military, administration, and military administration. Such division is necessitated by the parties to the raid and the mode in which they are engaged: defensive or aggressive. Raids depend on *s[c]aaleek's* armament, intelligence in gathering information, and fighting skills. The martial art of these poets is sufficiently demonstrated. In addition, the paper draws on illustrative evidence as regards space, time, and administrative services.